

الفصل الثامن

امتداد الغزو الإسلامي إلى سويسرا وأعلى الراين

القاعدة فراكينيتوم - تحكم المسلمين في ممرات الألب - اجتياح منطقتي
فاليه وفات (أدفو) السويسريتين (٩٣٦) - شرقى سويسرا - وصول
المسلمين الى بحيرة كونستانس ومقاطعة سانت جالس في أعلى الراين
(٩٣٩) - حول اقامة المسلمين في سويسرا .

استطاع المسلمون ، وهم في قلاعهم الحصينة في فراكسيليتوم بجنوبي فرنسا ، أن يشنوا غاراتهم على ما حولها من البلاد والأقاليم ، وذلك منذ حوالي عام ٨٩٠ م ؛ وقد سهل عليهم أن يتحكموا في عمرات الألب في مطلع القرن العاشر الميلادي ، بل واثمهم الظروف التي جعلت من سيطرتهم على منطقة الألب سيطرة قانونية أو شرعية ، اعترف بها أولو الأمر الوطنيون المعاصرون في جنوبي فرنسا وشمالى إيطاليا .

فقد حدث أن صراعاً شب بين هيو (ت ٩٤٨ م) كونت بروفانس ، على أثر انتقال تاج مملكة لومبارديا إليه عام ٩٢٦ م (١) ، وبين ألبريك Albericus ابن زوجته ماروتزيا Marozia حول النفوذ في إيطاليا ؛ على أن ألبريك استطاع أن يكون السيد الأمر الناهى في روما والبابوية ، وأن يتحكم في المدينة الخالدة نحو اثنتين وعشرين سنة ، وأكثر من هذا تمكن من أن يعين ابنه بابا ، وهو الذى عرف باسم البابا حنا الثانى عشر (٥٩٥٥ - ٩٦٤ م) (٢)

وخلال صراع هيو فى إيطاليا ، اشتدت غزوات المسلمين فى منطقة بروفانس ، وتمكنوا أنذاك من بسط نفوذهم على منطقة جبال الألب

Brooke, p. 34 (١)

Ibid. P. 35 (٢)

ومراتها ، فاستصرخ رعاياه ، مما اضطره إلى الاستعانة بالإمبراطورية
البيزنطية ، التي نهضت لنجدته بأسطول مسلح بالنار الإغريقية . وبينما
هو يضيق الخناق على حصن فراكسينيتوم الإسلامي قام منافس خطير له
يطمع في عرش مملكة لومبارديا ، هو برنجر الأول Berenger كونت
إيفريا Evrea ، ولجأ هذا المنافس إلى الإمبراطور أوتو Otto عام ٩٤٢ م .
ولكى يقطع هيو الطريق على منافسه ، اعترف بسيادة العرب على منطقة
الآلب وبامتلاكهم لمعابرها ، وعقد معهم معاهدة طاب إليهم فيها ،
كما يقول المؤرخ الألماني ليتوبراند Liutperand (ت ٩٧٠ م) ، أن يقطعوا
الطريق على عودة منافسه ؛ وقد وفى العرب بهذا الشرط ، فلم يستطع
برنجر العودة إلى إيطاليا إلا عن طريق التيرول (١)

وبذلك أضحى المسلمون سادة في منطقة جبال الآلب ، وفي الحدود بين
فرنسا وإيطاليا وسويسرا ، وصاروا يتقاضون رسوما على القوافل المارة
عبر ممرات الآلب سواء أكانت هذه القوافل للتجارة أم للحج إلى روما .

ومن هذه المعابر ، هاجم المسلمون سويسرا ، ولاسيما عن طريق ممر
سان برنارد St. Bernard وهو الذى يفصل بين مقاطعة فاليه Valais
السويسرية وبين شمالي إيطاليا . واجتاحوا منطقة فاليه ، وكذلك منطقة
جريزون Grisons والملحوظ أن رجال الدين الذين جفّلوا أمام المسلمين
في بروفانس ، كانوا قد لجأوا إلى فاليه ، ومعهم ما استطاعوا حمله من كنوز

(١) غزوات العرب ص ١٧٤ (رينو) ، ٢٥٥ (كار) ، Brooke, P. 35

وأموال وتحف، فكان ذلك من بين أسباب عبور المسلمين إلى سويسرا. وقد وصل المسلمون إلى شواطئ بحيرة جنيف Geneva حوالي عام ٩٣٦ م؛ ومن المحتمل أن هذا التاريخ لا يحدد أول دخول العرب إلى سويسرا، والغالب أنهم دخلوها منذ مطلع القرن العاشر الميلادي (١).

واشتدت وطأة الغزوات الإسلامية في المنطقة الفسيحة بين بحيرة كونستانس Constance في الشمال الشرقي من سويسرا، وبين مدينة كور Chur في شرقي سويسرا. وفي حوليات المؤرخ فلدور Flodoard عن حوادث عام ٩٣٦: أن العرب شنوا الغارة على سويسرا الألمانية، وأنهم قتلوا الكثير من الحجاج العائدين من روما (٢). والواقع أن قسماً كبيراً من سويسرا الألمانية، وهو الواقع بين مدينة كور وبين أعلى الراين كان ميداناً لنشاط العرب، وقد عثر في سجلات دير كور، على كتابة تدل على أن الإمبراطور أوتو الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣) عوض فالتو Walto، مقدم دير كور، عن الخسائر التي لحقت بأمالك الدير، نتيجة اجتياح المسلمين. وكان هرمان Hermann أمير سويسرة الألمانية، قد التمس من الإمبراطور هذا العوض للدير المذكور وذلك في المجلس الذي عقده أوتو في مدينة كدلنبرج Cuedlinburg في أبريل من عام ٩٤٠ م (٣)

وحوالي عام ٩٣٩ م، أوغل العرب في منطقة فات Waadt - وهي

(١) غزوات العرب ص ٢٥١ (كلر)

(٢) غزوات العرب ص ٢٥١ (كلر)

(٣) غزوات العرب ص ٢٢٥، ٢٥٥ - ٢٥٦ (كلر)

نفسها فو Vaud - وقاعدتها لوزان Lusanne الواقعة على الشاطئ الشرقي لبحيرة جنيف . كذلك وصل المسلمون إلى منطقة أفانشي Avanchez ومنطقة نيو شاتل Neuchatel وإلى بحيرة تونستانس وسانت جل St. Gallen وأبنزيل Appenzell وسارجان sargan وتوجنبرج Togenburg وكل هذه المناطق في أعالي نهر الراين (١) .

وتبعاً لرواية الراهب المؤرخ إلكهات ، مقدم دير سانت جال (٢) ، وكان قد هرب أمام حركات المسلمين ، أن المسلمين رغبوا في الاستقرار في الأقاليم التي وصلوا إليها ، وأنهم تزوجوا من الوطنيات ، وأخذوا يزرعون الأرض ويستغلونها ، وأن الحكام الوطنيين في تلك البلاد لم يسعهم إلا التسليم بمقامهم ، واكتفوا بحماية إتاوة منهم ، وربما استعانوا بالمسلمين في منافساتهم الداخلية . ولكن ليس من المحقق ، إن كان هذا قد تم في إقليم فاله السويسري أم في إقليم سافوى . كذلك ليس من المحقق كم بقي المسلمون في سويسرا ؛ فإن السجلات والكتابات التي عثر عليها في الأديرة السويسرية ، مثل دير كور ودير سانت جال ودير فافرس Pfafers لم توضح شيئاً في هذا الصدد ، هذا مع بقاء كثير من الآثار المادية الدالة على استقرار المسلمين في أنحاء سويسرا المختلفة (٣) .

(١) المسلمون في حوض البحر الأبيض من ١٣٠ - ١٣١ ، غزوات العرب من ٢٥٥ - ٢٥٦ (كلر)

(٢) تقع مدينة سانت جالين جنوب بحيرة كونستانس ، وقد كتب هذا المقدم تاريخاً لدير سانت جال .

(٣) عن تاريخ سويسرا لمؤلفه مولر (Muller) ج ١ ص ٢٥١ (غزوات العرب من ٢٦٢ . ٢٦٣ كلر)

من ذلك كتابة وجدت على حجر في كنيسة القديس بطرس في
مونتجو St. Pierre - Montjoux في قاليه ، وفي منطقة لوزان مكان يعرف
باسم برج المسلمين La Tour des Sarrazins ، وهناك حائط ينسب إلى
المسلمين في مدينة ففلسبرج Viflisburg ، وفي منطقة ديفلي Develiel
يوجد كهف منسوب للمسلمين ، وعلى أحد صخوره رقم ٢٣ بالحروف
العربية، كذلك في المقاطعات المجاورة لبازل بقايا أسماء عربية تحف بالطرق
الرومانية القديمة ، وهي التي يسلكها العرب في غزواتهم ، وتوجد
في مدينة بازل ، أسرة تعرف باسم أسرة السرازين ، ولها فروع في
جنيف وهكذا (١) .

ومن المحتمل أن المسلمين غادروا سويسرا ، خلال النصف الأخير
من القرن العاشر الميلادي ، إذ كانت أعدادهم قليلة ، وغزواتهم لم تخرج
عن كونها مغامرات فردية أو جماعية محدودة ، فضلا عن أن رجال الدين
قد انبروا في شتى البقاع لإثارة الحماس ضد المسلمين ومطاردتهم ، من
ذلك مثلا ، ما ذكره الراهب المؤرخ إكهارت ، عن جهود سلفه فالتو في
رئاسة دير سانت جال، إن ذلك السلف قد استنفر الناس حوالى عام ٩٥٤م
ضد المسلمين ، فهاجموهم وتمكنوا من قتل كثير منهم ، كما نجح فالتو وقومه
في أسر عدد كبير من المسلمين ، على حين نجح فريق من المسلمين في
الإفلات من أيديهم . وتقول الرواية ، إن الفريق الذي وقع أسيراً ،

(١) عن المؤرخ الأب سيراسي Serasset في كتابه عن أبرشية بازل ، ج ٢ ص ١٤٩

(غزوات العرب ص ٢٥٢ ، ٢٦٧ . كلر)

سبق إلى دير سانت جال مكبلا بالأغلال ، حيث رفض أن يتناول الطعام
وآثر الموت جوعاً (١) .

والراجح أنه بعد سقوط قلعة فراكسينيتوم الإسلامية حوالى عام
٩٧٥ م ، لم تعد للمسلمين صولة فى سويسرا أو فى مناطق الألب ، إذ
كانت هذه القلعة تعتبر عاصمة للمستلكات الإسلامية الأخيرة فى فرنسا
وشمالى إيطاليا وسويسرا ، وهى مشمولة برعاية خليفة قرطبة (٢) .

(١) رينو غزوات العرب ص ١٧٧ ، ٢٥٦ . ٢٥٧ (كلر واكهارت)

(٢) رينو غزوات العرب ص ١٦٥